النظرية السيميائية
مقولاتها وافاقها التطبيقية

د. سلام كاظم الأوسي . **آلاء حسين الشرع**
كلية الآداب / جامعة القادسية **كلية الآداب / جامعة القادسية**

الخلاصة :

تعد السيمولوجيا واحدة من المناهج التي برزت في القرن العشرين و امتزجت بالعلوم الطبيعية الأخرى على أن جذور هذا المنهج وجد أثره في الدراسات النقدية القديمة ، حيث ذكرت المفاهيم والمعنى التالي وعدت أساساً لعملية التداخل الدلالي أو ما تسمى بالسمقطة بالمفهوم الحديث ثم تطور المفهوم في العصر الحديث ليشكل منهجاً و نظاماً له أسسه وقوانينه التي جاءت على أنقاض البنيوية في الحركة الجديدة التي يطلق عليها اسم (ما بعد البنيوية) .

تقديم :

مع إطلالة القرن العشرين بدأت النظريات تتخذ طريقاً لها في دراسة الأدب والنقد الأدبي لتؤلف مناهج حديثة امتزجت بالعلوم الطبيعية .

وكانت السيمولوجيا واحدة من تلك المناهج، ويبدو للوهلة الأولى أن السيمياء أو السيموطيقيا علم جديد يزعم لنفسه القدرة على دراسة الإنسان دراسة متكاملة من خلال دراسة أنظمة العلامات التي يبتدعها ليدرك من خلالها الواقع من جهة ويعرف نفسه من جهة أخرى وقبل الولوج في هذا المنهج الذي ذاع صيته في الغرب نود إعطاء إشارات بسيطة تكون بمثابة منبهات إلى وجود شذرات لهذا العلم في تراثنا العربي، فمن المعروف أن كل شيء في هذا الكون لا بد له من أساس يستند إليه وجذر يقوم عليه، وأصل ينطلق منه ، إذ أن الأولية الحقيقية لهذا العلم امتدت بعمق في جذور الإنسانية حتى ظهرت على أيدي فلاسفة اليونان ومفكريهم، ثم أشرقت في تراثنا العربي الذي شكل دعامة من دعامات الوجود وأثراً فاعلاً في تصوراتنا مكوناوعينا الراهن، وأن بدا غير واضح في بادئ الأمر إلا انه يعمل فينا في خفاء ويؤثر في تصوراتنا ، وهو في النهاية ملك للعرب تركه الأسلاف لا ليكون قيداً على حريتنا، بل لنتمثله ونعيد فهمه وتفسيره وتقويمه من خلال المناهج والنظريات الحديثة السائدة فيحياتنا المعاصرة.

فالكتب والدراسات النقدية القديمة ذكرت المعنى والمعنى التالي وعدت أساساً لعملية التداخل الدلالي أو ما تسمى بالسمطقة بالمفهوم الحديث، بدا ذلك واضحاً عند عبد القاهر الجرجاني والجاحظ وغيرهما .

لقد ناقش الأسلاف دلالات اللغة على مستوى الألفاظ المفردة متنبهين لأنواع العلامات الأخرى الدالة، كما تنبهوا إلى الفرق بين دلالة اللغة ودلالة غيرها من أنظمة العلامات، مع بعض الاختلاف في المصطلحات التي كان التداول بها سائداً في زمانهم .

وفي العصر الحديث تطّور المفهوم ليشكّل منهجاً ونظاماً له أسسه وقوانينه، يقوم على أساس واحد هو العلاقة ودورها الذي تكتسب من خلاله وجودها سواء أكان على صعيد المجتمع في العلوم الإنسانية المختلفة .

البدايات :

جاءت السيمياء على أنقاض (البنيوية) في الحركة الجديدة التي يطلق عليها أسم (ما بعد البنيوية)، فكانت نقطة الشروع في هذا التحول (التحول من البنيوية إلى ما بعد البنيوية)، وهي ثورة اليسار الجديد، أو كما تعرف باسم ثور الطلاب (١٩٦٨)، وهي الثورة التي هدت أركان الحكومة الفرنسية، فأصبحت شعاراتها منبراً لكل محبّي التحرر، رافعين شعار (لا للبنيوية) ليصبح واحداً من أهم تلك الشعارات. إن التحّول إلى حركة ما بعد البنيوية هو استمرار للبنيويين كي يبقوا على وجودهم وسط

التيار الأدبي . ولكي لا يفقدوا امتيازاتهم التي اكتسبوها في ظل الاعتراضات عليهم ، بدءاً من إزاحة الذات إلى عدم قدرتها على تحقيق المعنى .

كان التوجه نحو السيمائية أي البحث عن منهج جديد يكون سائراً ومتلائماً مع الحياة الاجتماعية والسياسية .

فالسيمياء مصطلح يعنى بدراسة الإشارات وهو منبثق من جذر يوناني هو (Semeion ويعني العلاقة) التي تعنى بدراسة الشفرات، أي الأنظمة التي تمكن الكائنات البشرية من فهم بعض الأحداث، أو الوحدات بوصفها علامات تحمل معنى، وهذه الأنظمة هي نفسها أجزاء أو نواح من الثقافة الإنسانية على الرغم من كونها عرضة لتغيرات ذات طبيعة بيولوجية أو فيزياوية[١].

وتشترك السيمياء، أو السيمولوجي، أو السيموطبقيا جميعها في حدود الجذر وفي الخصائص والأهداف العامة، على الرغم من اختلاف ترادفها، فالسيمولوجيا (أي علم العلامات) هو مصطلح أطلقه العالم (دوسوسير)، أما السيموطبقيا النحت الأول فهو الذي استخدمه (جون لوك) في دراسته عن (طبيعة الفهم)[٢].

وكلا المصطلحين نحتا من الاصل اليوناني للكلمة (Semeiotike)[٣]، ويحددها (مارسيلو داسكال) من الأصل (Semeton)[٤]، في حين يرجعها (إمبرتوايكو) إلى الأصل (Seme)[٥]، وقد أثرنا استخدام مصطلح (السيمياء) المعرب في بحثنا هذا.

مفهوم العلامة :

لقد ارتبط مفهوم العلامة كلياً بدلالات (علم السيمياء) . فقد جاءت كلمة الباحثين والمنظرين متفقة كون السيمياء علم يدرس العلامات ففي (البدء كانت العلامة)[٦] - كما يقول رولان بارت - ثم تبدأ بعد ذلك بالتفرع بعدما قسمها دوسوير إلى (دال ومدلول)، أما شارل بيرس فقد أتفق مع دوسوسير في تقسيمه على الرغم من اختلاف التسمية مطلقاً عليها أسم (المصّورة والمفسرة) مع إضافة الموضوع أو المشار إليه، ويتفرع من العلامة مصطلحات عدة تجتمع سوية لتدخل في نطاق، أو دائرة السيمياء، وتشكل سلسلة مفاتيح لمغاليق هذا العلم.

الإشارة :

اختلفت نظرة الباحثين إلى هذا المصطلح وتعددت الاتجاهات فيها فسوسير يراها كياناً مزدوجاً مكوناً من (دال ومدلول) الأول مادي، والثاني ذهني[٧].

أما امبرتو إيكو فيرى، بأنها (نص يغطي نصّاً آخر)[٨]، بوصفها شيئاً مدركاً يظهر شيئاً آخر لا يمكن أن يظهر لولاه .

ويحدد بريتر مفهوماً آخر لها يكون بمثابة مؤشر اصطناعي يتكامل دوره بوجود متلقٍ له[٩] . وهي عند بيرس (موضوع) تشير إليه (ومؤولة) تولدها في ذهن المؤول و(أساس) يقوم عليه التأويل[١٠]، مما يؤدي إلى تفرع هذا المصطلح (الإشارة) إلى مفاهيم أخرى توضحه من جهة وتضاف إلى قائمة المصطلحات السيميائية من جهة أخرى ، وتتمثل تلك المفاهيم بالأيقونة، والمؤشر، والرمز .

* **الأيقونة** : هي العلامة التي تعين مرجعها حصراً بوساطة خصائص تعود أليه فالبصمة بمثابة أيقون للإصبع ، كذلك المرآة انعكاس للوجه وأيقون له، على أساس علاقة المماثلة التي تربط برباط طبيعي بين الشيء وهذا النوع من العلامات[١١] .
* **المؤشر** : نوع العلامة يشد الإنسان إليه برابط خفي ويخبر بظواهر لا تزال في ضمير الغيب، كالكهنة والعرافة التي تعد من وسائل الاتصال المرتبطة مع الآلهة والماوراء والمصير، فالعرافة - على سبيل المثال- تعد من أشهر أنظمة العلامات وتستند إلى التخمين بواسطة النجوم (التنجيم) أو ورق اللعب، أو خطوط اليد[١٢] .
* **الرمز** : هو من أنظمة العلامات، اختير اتفاقاً ليوحي مرجعه الأصلي، وقد ورد تعريفه في قاموس أكسفورد بأنه ((عبارة عن شيء يقوم مقام شيء آخر أو يمثله أو يدل عليه، لا بالمماثلة وإنما بالإيحاء السريع، أو العلاقة العرضية أو بالتواطؤ))[١٣].

والرمز عده وسيلة اتصال .. أعم وأشمل من الدلالة التي تخص بالرموز اللغوية .. في حين يهتم الأول بالعلامات والرموز لغوية كانت أم غير لغوية[١٤].

* **الشفرة** : هي واحدة من المصطلحات السيمائية المهمة، ووسيلة من وسائل الاتصال تشترك مع اللغة في جانب وتفترق عنها في جانب آخر، أما الاشتراك فلأنهما نظامان مهمان من أنظمة الاتصال بمختلف المجالات وأما الاختلاف فيبدو واضحاً في المرحلة التالية، لآن الشفرة مغلقة وجامدة بينما اللغة مفتوحة، وتخلق من جديد مع كل كلمة تنطق وهي مستمرة تجري مع عملية الاتصال، أما الشفرة فتوجد في بداية كل رسالة جاهزة [١٥].

ويلاحظ على الشفرة إنها نظام ضيق يطابق فيه كل دال مدلولاً عليه واحداً فقط بينما اللغة قائمة على تعدد الدوال لمدلول عليه واحد، أو أكثر المدلولات عليها لدال واحد[١٦].

وتجدر الإشارة إلى وجود مصطلحات للسيمياء مثل (الأنساق ، الترابط، الخطاب القرينة، المحلل اللغوي، الرسالة، المحور السياقي .. وغيرها)[١٧].

إن الحديث عن المصطلحات السيميائية يمتد ليشمل معاني محتملة تدخل في حيز هذا المفهوم، ونود الإشارة إلى ما ذكره الناقد (محمد عزام) عن تلك المعاني .

فقد ذكر منها المعنى الأساسي، والإضافي والأسلوبي، والنفسي، والإيحائي ..... وغيرها. فالمعنى الأساسي، أو التصوري يشترط في المتكلمين بلغة ما أن يكونوا متفقين على المعنى الأساسي

والمعنى الإضافي، أو الثانوي هو الذي يملكه اللفظ عن طريق ما يشير أليه، وهو زائد على المعنى الأساسي، وليس له صفة الثبوت أو الشمول، وإنما يتغير بتغير الثقافة والزمن، ولا يشترط على المتكلمين بلغة ما اتفاقهم في المعنى الإضافي لأنه مفتوح . والمعنى الأسلوبي، هو الذي تحمله قطعة من اللغة بالنسبة للظروف الاجتماعية لمستعمليها، والمنطقة الجغرافية التي ينتمي إليها، كما أنه يكشف عن مستويات أخرى مثل التخصص، ودرجة المتكلم الاجتماعية ولغته الأدبية .

والمعنى النفسي، يشير إلى ما يتظمنه اللفظ من دلالات عند وهو معنى فردي ذاتي، مقيد بالنسبة لمتحدث واحد، ولا يتميز بالعمومية والتداول بين الأفراد جميعاً .

أما المعنى الإيحائي، فيتعلق بكلمات ذات مقدرة خاصة على الإيحاء نظراً لشفافيتها، وهي تملك هذا التأثير من خلال تأثيرات ثلاثة : صوتية (صليل السيوف) وصرفية (في الكلمات المنحوتة)، ودلالية (تتعلق بالكلمات المجازية)[١٨].

حديث في السيمياء :

نعود إلى العلامة بوصفها ((جزءاً أو شيئاً من أجزاء الفكرة التي يعود إليها الفضل بتوليدها، تعبيرها))[١٩]. كما عبر عن ذلك شارل بيرس الذي لخص ما أراد قوله بأن المنطق في معناه هو مذهب علامات شبه ضروري وصوري وركز بشكل أساسي على دور العلامة المنطقي، على العكس من دوسوسير الذي أكد على الوظيفة الاجتماعية التي تؤديها العلامة، فبيرس يؤكد على أن تكون العلاقة بين (العلامة –الفكرة) في الإشارات علاقة اقترانية استدلالية وفي الأيقونة تكون العلاقة تجاورية أو متوازية، بمعنى آخر تداخل أو اندماج العلامة والفكرة في حضور واحد، وضرب لنا مثلاً في الرسم التصويري بأنه ايقوني إلى حد كبير تفقد معه الشعور بأنها ليست الشيء عينه[٢٠].

أما في الرموز فإن العلاقة بين (العلامة – الفكرة) هي علاقة إسنادية، اتفاقية يعني أنها ترتبط مع بعضها، وهذا شيء متفق عليه سلفاً حسب المرجعيات الاجتماعية والثقافية والأعراف التي يعمل عليها الرمز، وتكون الفكرة مسندة إلى العلامة ومع هذا فقد تكون العلامة أيقونية ومؤشراً ورمزاً في ذات الوقت لوظيفتها وكيفية استخدامها وليس فقط لطبيعتها . فالعلامة لها نقطة انطلاق تمر بظروف تلقيها وتنتهي بتشكيلها فكرة ما، أو صورة ذهنية معينة عن الملتقي الذي يؤولها حسب مرجعياته الثقافية والاجتماعية والفكرية، وقد تحل العلامة بديلاً عن موضوعها الخاص دون أن تمثله في علائقه كلها[٢١].

هنا نتساءل، لماذا تحل العلامة بديلاً ؟ وما ضرورة هذا الأجراء ؟ يحدثنا التاريخ عن اليونانية القديمة، فقد ذكر اليونانيون أن الإنسان هو مجرد حيوان ذو لسان وقول، وقد تميّز عن غيره من سائر المخلوقات بأنه (ناطق) على الرغم من وجود قواعد تحكم هذا النطق وهو اللسان، وتكون عملية النطق

من خلال اندماج الإنسان بالمجتمع الذي يحيط به من أجل التواصل بالمفهوم الوجودي، فليس هنالك وجود إلا من حيث التواصل الواعي[٢٢]. لذا نجد السيمائيين يميّزون بين مفهومي التداول والاتصال، مركزين على مفردة المعلومات التي يمكن تداولها على شكل كلمات منطوقة أو مكتوبة ليكون الموقف اتصالا وتداولاً في آن واحد، بعكس الأشياء المادية التي تحقق اتصالاً ولا تحقق تداولاً[٢٣].

أما المعلومات فتنتقل بوصفها جزءاً من نظام الرموز المتمثل بلغة مشتركة أو يجذب الانتباه لها من خلال عرضها كما يوضح دان سبيربر[٢٤].

إذن الغاية من العلامة هو الاتصال وإثبات وجود من خلال امتلاك المعلومات أما لماذا تحل العلامة بديلاً، فذلك لكونها تعتمد على ما سبق لجذب المشاهد إلى الموضوع، على الرغم مما يثيره من تعب وجهد يستهلك الكثير من الوقت والبديل عن ذلك هو اختزال العلامة وأضافتها إلى نظام رمزي، فالإشارات لم تأتي لتشير إلى الأشياء، بل تدل على مفاهيم، والمفاهيم من أركان الفكر، وليس من أركان الواقع[٢٥].

إن السيمياء مثل أي نظام لغوي يمكن قراءته وفقاً لمحورين : محور الاستبدال ومحور التركيب، وكلا المحورين مكمل للآخر[٢٦].

ففي الاستبدال يتم التحقيق من التغير الحاصل في النظام جراء إبدال مفردة بأخرى، أو تقديم واحدة على غيرها وما يترتب عليه من تبدل في شبكة العلاقات ومحور التركيب متلازم مع الاستبدال كونها من أهم أدوات المنهج التجريبي فالاستبدال هو أحد آليات الوصول الى تركيب، والتركيب ذاته بنية مستقرة اتفاقاً[٢٧].

ومن خلال هذا المفهوم نستطيع التعرف على قدرة العلامة على الاشتغال بفعالية داخل النسق، وهذا ما يجعلنا نميز بين (البنيوية والسيمياء)، وذلك لان البنيوية تناولت دراسة النظام على مستوى كلية الشفرات وتنوعها، أما السيمياء فهي تتعامل مع العلامة كحلقة في سلسلة نظام تربط فيما بينهما شفرة واحدة.

ويبدو أنَّ تصنيفات العلامة أو تقسيمها ما هي إلا محاولة لتشفير العلامة بهدف تحديد ما هو سابق على وجودها أو ما يتحكم في صيغها التي تظهر بها، وحسب ما جاء به بيرس، فإن المنطق بأوسع معانيه ليس سوى مجرد أسم آخر للسيموطيقيا، أو نظرية العلامات، ومن خلال الشروط والقوانين يتم التعامل مع العلامة على وفق منطقها الخاص بها، الذي تم تحديده مسبقاً[٢٨].

إنَّ المدلول لكلمة ما يساوي كل الشروحات الممكن توفرها حول هذه الكلمة، فمعنى الشيء ليس سوى العادات التي يتضمنها، وبعد فان ماهية عادة من العادات تتوقف على الطريقة التي تقودنا بها إلى الفعل[٢٩].

معنى الشيء = العادات التي يتضمنها = السلوك الذي من شأنها أن تبعثه

ويمكن التوصل إلى التسلسل الذي يحصل فيه الشيء على معنى خاص به أو دلالة أو مكون ذهني خاص مواز لوجود الشيء المستقل عن الفكر .

الشيء + معناه = علامة

الشيء تفكير بالشيء

أثر ناتج عن التفكير = اعتقاد + سلوك + عادة = الطريقة التي تقودنا إلى الفعل تجاه الشيء .

بمعنى أنَّ السلوك ينبني على مجموعة عادات ناتجة من اعتقاد بصحتها كطريقة للفعل[٣٠].

مفاهيم سيميائية :

من أشهر المفاهيم السيميائية التي شغلت حيّزاً واسعاً، لأهميتها النظرية والإجرائية.

التفاعل :

يرتبط هذا المفهوم بالتداولية أو التيار التداولي الذي يتعلق بعمليات الاتصال وهي الوظائف التي يطلق فيها القول أو المنطوق، ولا سيما بين المتكلم والمستمع في حالة حضور أو غياب، وذلك باستعمال الأدلة اللغوية المطابقة لمقتضى الحال، أو المطابقة لمقتضى المقام والمقال[٣١].

وبما أنَّ التداولية ترتبط أساساً بمفهوم التفاعل، أو هي جزء منه لذا فهي تتفرع إلى فرعين رئيسيين :

الأول : تيار موريس وأتباعه (بنفنست ولاينز) الذين اتفقوا على مجموعة بنود منها المعينات التي تشمل (الضمائر وأسماء الإشارة وأداة التعريف)، والزمان النحوي بأنواعه (الماضي والمضارع والأمر)، والمكان كبعض ظروف المكان (هنا، هناك، قرب .. فضلاً عن التعابير المكانية، سيما، سوف...) وغيرها.

الثاني : تيار فلاسفة أكسفورد الذي اهتم بدراسة أحد الجوانب الأساسية في التداولية المتمثلة في أن الكلام يقصد به تبادل المعلومات مع القيام بفعل محكوم بقواعد مضبوطة في الوقت نفسه وهذا الفعل يهدف إلى تحويل وضع المتلقي وتغيير نظام معتقداته ومواقفه السلوكية[٣٢].

التشاكل :

احتل هذا المفهوم مركزاً أساسياً ومهماً عند السيميائيين . فقد نقله غريماس من ميدان الفيزياء إلى ميدان اللسانيات، مطبقاً هذا المفهوم على الحكاية بوصفه مجموعة متراكمة من المقولات المعنوية (المقومّات) التي تجعل قراءتها مشاكلة للحكاية أي أن التشاكل في الحكاية أقتصر على التشاكل المعنوي مع انه موجود وملاصق لكل تركيب لغوي[٣٣].

وقد توسعوا بهذا المفهوم ليشمل كل تكرار لوحدة لغوية مهما كانت، أي أن حصول التشاكل يكون رهناً بتعدد الوحدات اللغوية المختلفة، مما يؤدي إلى الفهم الموحد للنص من خلال انسجام أجزائه وارتباط أقواله، فنضمن بذلك إزالة الغموض والإبهام عن النص[٣٤].

التناص (المتناص) :

تضمن التناص معاني خاصة عند السيميائيين مثل (رولا بارت –جولياكرستيفا – ريفاتير) فالإشارات لديهم تشير إلى إشارات أخرى، وليس إلى الأشياء مباشرة، والنصوص كذلك تشير إلى نصوص أخرى .

فالفنان عندما يكتب ويرسم، ليس استناداً إلى الطبيعة، بل استناداً إلى طرائق أسلافه في تنصيص الطبيعة، وهكذا آذن المتناص هو نص يكمن في داخل نص آخر ليشكل معناه، سواء أكان المؤلف شاعراً بذلك أم غير شاعر[٣٥].

وفي حديثه عن التناص يحدد محمد مفتاح مفهوم النص أولاً وذلك باستعراض مقوماته الجوهرية والأساسية المتمثلة بالمدونة الكلامية، والحث الذي يقع في زمان ومكان معينين، والتواصل عن طريق إيصال المعلومات والخبرات إلى المتلقي، ثم التفاعل الذي يعني بإقامة علاقات اجتماعية بين أفراد المجتمع والتوالد الذي يخص الناحية المعنوية المضمونية المتولدة من أحداث عدة، تاريخية ونفسية ولغوية[٣٦].

ثم ينتقل إلى تعريف التناص بوصفه تعالق (الدخول في علاقة نصوص مع نص حدث بكيفيات مختلفة)[٣٧].

إذن التناص عملية قائمة على أساس التأويل، وهذا التأويل يحتاج شبكة معرفية لا تتوقف على المنتج حسب، بل المتلقي أيضا. ولا يتوقف الحديث على هذه المفاهيم، بل هنالك مفاهيم أخرى ذكرها محمد مفتاح وغيره: كالتباين، والصوت والمعنى والمعجم، والتركيب، والتركيب البلاغي، والمقصدية .

التطبيق

ظلال السيمياء في الشعر الجاهلي:

بعد التعرف على مفاهيم السيمياء بوصفه علماً ومنهجاً نقدياً حديثاً وبعد الكشف عن مصطلحات ذلك العلم، يدعونا المقام إلى وقفة تأمل قصيرة نستذكر من خلالها جانباً من موروثنا العربي والأسطوري على وجه الخصوص، للإجابة عن تساؤل تبادر إلى الخاطر وبات يلح عليه منذ الشروع في القراءة، والتوغل في خبايا هذا المنهج ترى هل بالإمكان دراسة ذلك الموروث دراسة سيميائية، أم أن هذا المنهج كان حصراً على الآداب الغربية حسب؟ حتى تكون الإجابة واضحة لنعتمد مصطلحات

سيمواوجية أكثر قرباً إلى الأدب العربي (كالرمز، والإشارة والعلامة، والدلالة) وسيكون (رمز الطير) المحور الرئيس في هذه الدراسة، لما شغله من دور في الأدب العربي على مختلف العصور.

ففي الشعر الجاهلي –على سبيل المثال لا الحصر – نجد لهذا المخلوق حضوراً واسعاً سواء أكان في لوحات القصيدة المتعددة من افتتاح ورحلة وصراع، أم في موضوعاتها .

وقد عدت تلك اللوحات محطة هيأت الشاعر نفسياً وفنياً لخوض تجربة امتدت إلى المرحلة الثالثة في القصيدة، وهي الباعث على القول، المتضمن موضوعات: المديح، والرثاء، والفخر، والحكمة، لذا أخذ الطير مكاناً واسعاً وحقق حضوراً في تلك الموضوعات . ففي المديح كان لرمز الطير ودلالاته وقع في إسباغ بعض القيم على الممدوح وذلك للأسرار والمزايا المودعة فيه (الطير)، التي تطلع الإنسان إلى إدراكها ومعرفة أسرارها، وقد ساعد هذا الرمز على ترك الكلام المباشر والتوجه إلى صيغ جديدة وإيحاءات رمزية تخدم الغرض الرئيس وتحقق متعة قد لا نجدها في الطريقة المباشرة فضلاً عن تأثيرها في الممدوح نفسه .

فالمرقش الأكبر يستعين بدلالة الطير لمدح ملك من آل جفنة، وذلك في قوله :

ما ذنبنا في أن غزا ملكٌ ... من آل جفنة حازمٌ مُرغمْ
فانقضَّ مثلَ الصقرِ يقذفُهُ ... جيشٌ كغلان الشَّريفِ لهم[٣٨]

الصقر هنا يرمز للقوة والاقتدار ، أما الاختيار هذا الطائر بالذات تجعلنا نعود بذاكرة التاريخ إلى عهود قديمة يتحول فيها (الصقر) إلى علامة تكشف عن اللامرئي وتقترب من اللامعقول في بعض الأحيان وهذا اللامرئي يرتبط بالأساطير والمعتقدات القديمة التي تذكر أن العرب اتخذوا صنماً على هيئة النسر أو الصقر دأبوا على عبادته وتقديسه .

ويطالعنا النابغة الذبياني بصورة جميلة يمدح من خلالها الملك عمرو بن الحارث الغساني :

إذ ما غزوا بالجيش حلَّقَ فوقهم ... عصائب طيرٍ تهتدي بعصائبِ
يصانعهم حتى يغرنَ مغارهم ... من الضاربات بالدماءِ الدواربِ
تراهنَّ خلف القوم زوراً عيونها ... جلوس الشيخ في مسوخ أرانبِ[٣٩]

فعصائب الطير علامة مهمة على وجود المزيد من القتلى كلما سار جيش الممدوح ومما زاد في قوة الجيش أن الطيور تفهمه وتعلم مقدار قوته ووقت تحركه للمعركة .

إن هذه الرموز شكلت صورة أقوى، وأبلغ مما لو كان المديح مباشراً يذكر فيه الشاعر قوة جيش الممدوح وأقدامه في المعركة، وغيرها من الصفات التقريرية المباشرة . ولقرب الرثاء من النفس الإنسانية وارتباطه الوثيق بغرض المديح كونه يتضمن مدحاً للميت و إشادة بمآثره وسجاياه، رثا الشعراء قتلاهم الذين سقطوا في المعركة ليعبروا عن شعورهم المتأجج بالكراهية والبغض تجاه الأعداء، وإنهاض الهمم طلباً للثأر لقد تسربت رموز الطير ومفرداته وإيحاءات صوره إلى شعر الرثاء واستعان بها الشعراء في تجسيد صور رثائهم . وتطالعنا الأسطورة – مّرة أخرى- ورموزها في دلالة الطير وذلك لارتباطه بمعتقداتهم السائدة آنذاك، فقد كان الطير جزءاً من تلك الأساطير وأحد أركانها الرئيسة، لذا وظف الشعراء تلك القصص المتعلقة بالطير ودلالتها في تجاربهم الشعرية، فضلاً عن أن الاسطورة تعد شكلاً من أشكال الأدب حظيت باهتمام فائق وكبير من قبل السيمائيين فالأسطورة تقول أن الحمامة فقدت فرخها أو ذكرها فما من حمامة ألا وتبكيه وتدعوه أبداً، لذلك نجد الشعراء يتخذون من الحمام وصوته الشجي باعثاً على البكاء وأثارت الأحزان، يقول المهلهل التغلبي :

إن في الصدر حاجةً لن تقضى ... ما دعا في الغصون داعٍ هديلا
كيفَ أنساكَ يا كليبُ ولمّا ... أقض حزناً ينوبني وغليلا [٤٠]

ويمتد رمز الحمامة الباكية الدائمة الحزن ليتخلل قصائد الخنساء في بكائها على صخر :

تذكرتُ صخراً إذْ تعَّنتْ حمامةٌ ... هَتوفٌ على غصنٍ من الايك يسجعُ
فظلت لها أبكي بدمعٍ حزينةٍ ... وقلبي مما ذكرتني موجّعُ[٤١]

ويبلغ ذلك الرمز أقصى غاية وأعمق دلالةً عندما تخاطب عينها وتطلب منها أن تكون كهذه الحمامة الدائمة البكاء .

كوني كورقاء في أفنان غيلتها أو صائحٍ في فروع النخل هتّافِ (٤٢)

ويوظف (صخر الغي) الرمز نفسه للكشف عن مدى حزنه العميق على فقد ولده (تليد)، ذلك الحزن الذي ارتبط بشكل اقوى من حزن الحمامة فكأنها شاركته ذلك المصاب لان الحزن اصبح قاسماً مشتركاً بينهما:

وذكرّني بكايَ على تليدٍ حمامةٌ مرَّ جاوبت الحماما
ترجع منطقاً عجباً وأوفت كنائحةٍ أتت نوحاً قياما(٤٣)

أما موضوع الحكمة فقد جاء في ثنايا القصائد أو نهايتها، وكان طابعه الحزن لارتباطه بالرثاء من جهة وكونه يدعو إلى التفكير بمصير الحياة والموت من جهة أخرى

وقد أخذ رمز الطير وإيحاءاته ودلالاته حيزاً واسعاً في هذا الموضوع للتعبير عن حقيقة الموت ، وذلك لاحتواء هذا المخلوق- كما سبق الذكر- على أسرار كثيرة وكان الاعتقاد السائد أنه يعلم المجهول أكثر من غيره ، من ذلك قول المتلمس :

أعاذل إنَّ المرءَ رهنُ مصيبةٍ صريعٌ لعافي الطير أو سوفَ يرمسُ (٤٤)

كما فعل تأبط شراً الشيء نفسه :

فلو نبأتني الطيرُ أو كانت شاهداً لآياكَ في البلوى أخٌ لكَ ناصرُ(٤٥)

وفي مقابل هذه النظرة نجد أبياتاً للشاعر لبيد العامري تعامل فيها مع هذا الرمز بشكل عقلي ليقترب في تفكيره هذا من الإيمان :

لعمرك ما تدري الضواربُ بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانعُ
سلوهن أن كذبتموني متى الفتى يذوق المنايا أو متى الغيث واقعُ(٤٦)

لقد كان لإحساس الشاعر بالخوف وجهله من المستقبل دافعاً للسخرية من معتقدات عصره – فكانت أبياته هذه رداً على سابقيه من الشعراء وما ذكر (زاجرات الطير) إلا إشارة إلى بطلان تلك المعتقدات والاستهزاء بها .

كما ذهب البعض إلى أبعد من ذلك في أن التطير شؤم على من يعتقده فإذا لم يمنعه عن أقدامه فانه يزعزع ثقته ويبلبل عقله فيذكر علقمة بن عبدة الغراب الذي كان رمزاً للشؤم وحدوث ما يستكره حدوثه مشيراً إلى خطورة من يؤمن بهذا المعتقد :

ومن تعرّضَ للغربانِ يزجُرُها على سلامتهِ لا بُدَّ مشؤوم
وكل حصنٍ وان طالت أقامُتهُ على دعائمهِ لا بدَّ مهدومُ (٤٧)

وتحفل دواوين الشعراء العرب بالكثير من النماذج التي تضمنت رموزا كثيرة كان الطير واحداً من تلك الرموز، على أن هذا الرمز لم يقتصر على الشعر العربي حسب، بل ظهر في القصص الرمزي عند العرب ((في بيئة الفلاسفة والصوفية وأصحاب المذاهب الذين وجدوا أن أفكارهم وما يرونه لا تبدوا أحيانا مؤثرة وقوية ألا بتجسيدها في رموز متحركة، حية ناطقة، وكان الطير أبرزها)) (٤٨).

ولعل(الغراب) واحد من أبرز الرموز التي حفل بها الأدب الإنساني بعامة والعربي بخاصة .

Abstract

Symology is one of the methods which come out in the beginning of the twentieth century and mingled with the other natural sciences.

The roots of this method affect the old critical studies which study the meaning and the following meaning , and they are considered the essence of the interpenetration process or what is called " Samkata" in the modern concept .

Then this concept has developed in the modern age to form a method and a discipline which has its bases and laws which come on the ruins of the structural in the new movement that is called "After the Structural

الهوامش :

١. ينظر : السيمياء والتأويل، روبرت شولز، ترجمة سعيد الغانمي، ص١٤
٢. ينظر :المصطلحات الأدبية الحديثة، محمد عناني :ص١٥٤
٣. المصطلحات الأدبية الحديثة :١٥٥
٤. ينظر :في الاتجاهات السيمولوجية المعاصرة، مارسيلوداسكال :ص١٥
٥. القارئ في الحكاية، امبرتوايكو، ترجمة انطوان ابي زيد :ص١٦
٦. علم العلامات في كتاب : مدخل الى السيموطبقيا، فريال غزول : ص٩
٧. السيمياء والتأويل، روبرت شولز، ترجمة سعيد الغانمي :ص١٤٢ .
٨. النقد والدلالة، محمد عزام : ص١٨ .
٩. ينظر : السيمياء والتأويل : ص١٤٢ .
١٠.ينظر : النقد والدلالة :ص١٩ .
١١.الاتجاه السيميائي في نقد الشعر العربي، غريب طارش :ص٥٠ .
١٢.ينظر : السيمياء بيارغيرو، ترجمة انطوان ابي زيد : ص٧٩ .
١٣.محاضرات في السيمولوجيا، المرغنيني :ص٤٥ .
١٤.ينظر : علم الدلالة، احمد مختار عمر :ص١٥ .
١٥.النقد والدلالة :ص٢١ .
١٦.المصدر نفسه .
١٧.المصدر نفسه : ص١٦١-١٦٢
١٨.ينظر : النقد والدلالة : ص٢٦-٢٧
١٩.القارئ في الحكاية : ص٣٢
٢٠.ينظر : سيمياء المسرح والدراما، كير أيلام :ص٣٦ .
٢١.ينظر : القاريء في الحكاية : ص٣٢ .
٢٢.ينظر : الفلسفة المعاصرة في أوربا –بوشنسكي :ص٢٧٧ .
٢٣.ينظر : النقد والدلالة نحو تحليل سيميائي للأدب، محمد عزام : ص١٥ .
٢٤.ينظر : المصدر نفسه : ص٣٧ .
٢٥.ينظر : السيمياء والتأويل : ص٥٢ .
٢٦.ينظر : النقد والدلالة : ص٧٣، الأسلوبية والأسلوب، عيد السلام المسدي : ص١٣٤ .
٢٧.ينظر : الأسلوبية والأسلوب : ص١٣٣-١٣٤ .
٢٨.ينظر : السيمياء، بيار غيرو، ترجمة أنطوان أبي زيد :ص٦ .
٢٩.ينظر : النقد والدلالة : ص٨٠-٨٣ .
٣٠.ينظر : البنيوية وعلم الإشارة، ترنس هوكز، ترجمة مجيد الماشطة : ص١١٣ وما بعدها .
٣١.ينظر : السيمياء والتأويل : ص٢٤٣ .
٣٢.ينظر : الاتجاه السيميائي في نقد الشعر، غريب طارش :ص٨١ .
٣٣.ينظر : الاتجاه السيميائي في نقد الشعر، غريب طارش :ص٨١ .
٣٤.ينظر : الاتجاه السيميائي في نقد الشعر : ص٧٩ .
٣٥.ينظر : السيمياء والتأويل : ص٢٤٤ .
٣٦.ينظر : تحليل الخطاب الشعري، محمد مفتاح : ص١٢ .
٣٧.المصدر نفسه : ص٢١ .
٣٨.المفضليات،المفضل الصبي : ٢٣٩/٥٤ .
٣٩.ديوان النابغة الذبياني :٥٧-٥٩
٤٠.المهلهل التغلبي حياته وشعره : ص٣٢١ .
٤١.شرح ديوان الخنساء :ص٦٨ .

٤٢.المصدر نفسه : ص٦٩ .
٤٣.ديوان الهذليين : ٦٦/٢ .
٤٤.شعر المتلمس الضبعي :ص١١٠ .
٤٥.شعر تأبط شراً : ص٨٦ .
٤٦.شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري :١٣٥ .
٤٧.شرح ديوان علقمة بن عبدة : ص٦٣ .
٤٨.الطير في القصص الرمزي، فائز طه عمر : ص٦٨ .

ثبت المصادر :

١- في الاتجاهات السيمولوجية المعاصرة، مارسيلو داسكال .ترجمة حميد الحمداني وآخرون ,مطابع افريقيا الشرق ,الدار البيضاء
٢-الأسلوبية والأسلوب، عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس .
٣-البنيوية وعلم الإشارة، ترنس هركز، ترجمة مجيد الماشطة، بغداد، ١٩٨٦، ط١ .
٤-تحليل الخطاب الشعري، استراتيجية التناص، محمد مفتاح، دار التنوير، بيروت، ١٩٨٥، ط١ .
٥-ديوان النابغة الذبياني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ١٩٨٥، ط٢ .
٦-ديوان الهذليين، نسخة مصورة عن دار الكتب، القاهرة، ١٩٦٥ .
٧-السيمياء، بيار غيرو، ترجمة انطوان أبي زيد، بيروت، اريس، ١٩٨٤، ط١ .
٨-السيمياء والتأويل، روبرت شولز، ترجمة سعيد الغانمي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٤، ط١ .
٩-سيمياء المسرح والدراما، كيرايلام، ترجمة رئيف كرم، لمركز العربي، بيروت، ١٩٩٢ .
١٠-شرح ديوان الخنساء، تحقيق عبد السلام الحوفي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥، ط١
١١-شرح ديوان علقمة الفحل، تحقيق احمد صقر، القاهرة، ١٩٣٥ .
١٢-شرح ديوان لبيد العامري، تحقيق إحسان عباس، كويت، ١٩٦٢ .
١٣-شعر تأبط شراً، تحقيق سليمان داود القره غولي وجبار تعبان، مطبعة الآداب، النجف، ١٩٧٣، ط١ .
١٤-شعر المتلمس الضبعي، حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية، ١٩٧٠
١٥-الطير في القصص الرمزي، د.فائز طه عمر .مجلة الطليعة الادبية
١٦-علم الدلالة، احمد مختار عمر، دار العروبة، الكويت، ١٩٨٢ .
١٧-الفلسفة المعاصرة في أوربا، بوشنسكي، ترجمة عزت قرين، الكويت، ١٩٩٢ .
١٨- الاتجاه السيميائي في نقد الشعر العربي،غريب طارش،رسالة ماجستير، كلية التربية الجامعة المستنصرية، ١٩٩٦
١٩-القارئ في الحكاية، امبرتوايكو، ترجمة انطوان أبي زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٦٩ .
٢٠- محاضرات في السيمولوجيا، السرغيني
٢١-مدخل إلى السيموطبيقيا، ترجمة ميزا قاسم، ونصر حامد أبو زيد، دار الياس، القاهرة
٢٢-المصطلحات الأدبية الحديثة، محمد عناني، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٩٦، ط.١
٢٣-المفضليات، المفضل (١٧٨هـ)، تحقيق احمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف